

مقاربة بين البلاغة و الخطاب التداولي : نظرية النظم- نموذجاً-

الدكتورة فائزة حسناوي – جامعة البليدة – الجزائر

مدخل منهجي :

إن الحديث عن مكانة البلاغة في الخطاب التداولي، يطرح علينا جملة من التساؤلات لا يمكن الإجابة عليها إلا عبر تحديد و توضيح الإشكالية البحثية، ثم تحديد المفاهيم الاستيمولوجية للخطاب التداولي ، و رصد التيارات اللسانية التي تقف من وراء البحث العلمي الكفيل بفهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات البلاغية ، التي يمارسها الفاعل المتكلم من أجل التواصل مع المتلقي . من هذا المنطلق تكشف التداولية حقائق اللغة كنشاط فردي و اجتماعي، ضمن وظيفة كلامية يتم من خلالها استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطار الثلاثية الآتية(مرسل-متلقي-وضعية تبليغية).

من هذا التوجه العام للتداولية تعددت زوايا النظر، واختلفت في مدى ارتباط البلاغة بالفكر اللساني التداولي .و عليه فالدراسات التداولية العربية، نجدها مبثوثة في الميدان البلاغي عند أساطين البلاغة، كالباقلائي و السكاكي و الزمخشري. وقد برزت معالمها أكثر في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، التي سنحاول أن نقف عندها مليا ، مبرزين الأفكار الجوهرية التي تتصف بها و انعكاسها على النظريات التداولية الغربية . ونخلص من تلك المقارنة إلى تحديد موقع نظرية النظم البلاغية في الخطاب التداولي، و دورها الهام في اللسانيات الحديثة.

1- الدرس البلاغي ومراحلته :

نشأت العلوم البلاغية في كنف المناظرات الأدبية و المساجلات الشعرية في الأسواق الأدبية ،كسوق عكاظ و غيره. في شكل ملاحظات نقدية بسيطة منذ العصر

الجاهلي ، و بداية العصر الإسلامي ، ثم أخذت هذه الملاحظات في التطور و التوسع ، غير أنها ظلت هامشية عابرة ، حتى كان عصر الجاحظ والمبرد في القرنين الثاني و الثالث الهجريين". (1) فقد ألف الجاحظ كتاب

" البيان و التبیین " و كتاب "الحيوان " و اعتبر من خلالهما المؤسس الحقيقي لعلم البلاغة . و عموما بقيت علوم البلاغة من البيان والمعاني والبدیع " متداخلة في ثنايا المؤلفات الأدبية و النقدية تستخدم للاستعانة بها في النقد و المقارنة و المفاضلة بين الأدباء و الشعراء، كما فعل قدامة بن جعفر في نقد الشعر و النثر ، و الأمدی في الموازنة بين أبي تمام و البحتري ، و القاضي الجرجاني في الوساطة بين المتنبي و خصومه. " (2)

وقد ساهم القرآن الكريم في بلورة الدراسات البلاغية و إنمائها ، فقد تحدى الله الناس جميعا و العرب خاصة، بالإتيان بمثل هذا القرآن، لميزاته البيانية و البلاغية التي تفرد بها . مما شجع أهل البلاغة في البحث و التأليف في معان القرآن و مجازاته.

ثم جاءت مرحلة ترتيب المادة البلاغية، و تبويبها و لم شتاتها، من مختلف المؤلفات و الكتب المشهورة و ذلك في أواخر القرن الرابع الهجري.

ثم كانت بداية القرن الخامس للهجري، مرحلة ضعف و جمود في الأدب العربي بصورة عامة ، حيث بدأ الاهتمام بالشكل على حساب المضمون ، وكان جهد الشعراء منصبا على تكلف السجع و الجناس و ما إلى ذلك دون الاهتمام بالمعنى . فكانت ردة الفعل سلبية أيضا تتمثل في ظهور تيار جديد يدعو إلى إهمال الشعر ، إذ ليس فيه إلا ملحّة أو بكاء منزل ، أو وصف طلل أو ما إلى ذلك مما لا طائل تحته. ودعا هذا التيار أيضا إلى الإعراض عن النحو ، لأنه ضرب من التكلف و التعسف لا فائدة منه بعد معرفة الرفع و النصب. (2)

وهنا ظهر عالم جليل هو الإمام عبد القاهر الجرجاني، حيث تصدى لكلا التيارين ، فهاجم أولئك الذين يهتمون باللفظ دون المعنى ، مبينا أن الألفاظ ما هي إلا أوعية للمعاني و خدم لها ، وأن البلاغة و الفصاحة لا تكون إلا في اللفظ و المعنى معا ، و أن المعول عليه في ذلك هو النظم و ليس الكلمات المفردة في اللغة.

كما هاجم التيار الثاني الذي دعا إلى الإعراض عن الشعور والنحو ، ونبه إلى أن البلاغة ليست أمرا مستقلا عن اللغة ، وأن دراستها من خلال عنصري اللغة (اللفظ والمعنى) ضرورة من أجل الوقوف على إعجاز القرآن الكريم وفهمه ، فوضع عبد القاهر الجرجاني بذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة الدراسة الوظيفية للغة.(3)

بعد هذه الجولة المختصرة عن مراحل تطور البلاغة نقف عند مجموعة تعريفات و تحديدات لها حتى يتسنى لنا لربطها بالدرس التداولي و بحث العلاقة القائمة بينهما.

تعريف البلاغة :

يوصف الكلام بالبلاغة إذا اجتمع فيه عنصران :

1- حسن الدلالة و تمامها فيما كانت له الدلالة ، وذلك بأن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.

2- تبرج الدلالة في صورة بهية، وذلك بأن يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخص به و أكشف عنه و أتم له (4)

وتتجلى البلاغة في معرفة كيفية ربط الجمل ببعضها ، و لمعرفة ذلك لابد من معرفة ارتباط الجملة بالموقف أو الحال الذي يقال فيه الكلام. و يحدد الموقف أو الحال وصف القول الذي يستوجبه . وهذا ما عبروا عنه بقولهم (لكل مقام مقال).(5)

إن وظيفة اللغة الأساسية هي التبليغ و التواصل بين الناس، و نقل ما يقصده المتكلم إلى السامع. وهذه الوظيفة هي التي تحدد علاقة الموقف أو الحال بالكلام، لذلك يعرف عبد القاهر الجرجاني البلاغة ، أنها سوق الكلام وفق مقتضى الحال و مناسبة المقام.(6)

ويعرفها ابن المقفع : البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة منها ما يكون في السكوت ، و منها ما يكون في الاستماع ، و منها ما يكون شعرا ، و منها ما يكون سجعا ، و منها ما يكون

خطبا ، وربما كانت رسائل، فعامة ما تكون من هذه الأبواب ، فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة. (7)

أما الخليل بن أحمد فقد عرفها بقوله : "هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه." (8)

أما مفهوم البلاغة عند الجاحظ فهي تلك "المعاني المطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، و البدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن و تغير اللفظ ، و سهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الصيغ وجودة السبك." (9)

وعرفها السكاكي (ت626هـ) في مفتاحه بأنها : " تتبع خواص تراكييب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من استحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال. (10)

وفي اتجاه الجاحظ و السكاكي سار العلامة ابن خلدون حيث يرى أن الأصل في صناعة النظم والنثر إنما هو اللفظ وأن المعاني تابعة له ، لأن المعاني موجودة عند كل واحد وفي طرق كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة. (11)

وقيل أن البلاغة هي معرفة الفصل والوصل.

وأنها إيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خلل.

وأنها إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع.

وأنها القوة في البيان مع حسن النظام.

إلى غير ذلك من التعاريف، و تجدر الإشارة هنا إلى أن ما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم ، من تقسيم لعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده ، وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر. (12)

ومن المعاصرين يقول أحمد حسن الزيات في مفهوم البلاغة " و الحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة، هي أناقة الديباجة ورشاقة السرد ،

ونصاعة الإيجاز، وبراعة الصنعة ، فإذا كان مع كل ذلك المعنى الكثير ،

والشعور الصادق، كان الإعجاز وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ ، وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التفاه قد يتسم في الجمال ، ويظفر بالخلود ، إذا جاد سبكه وحسن معرضه." (13)

بعد هذه الجولة في تعريفات البلاغة وتطورها، نسلط الضوء على العلاقة التي تربطها بالدرس التداولي ، وقبل تحديد هذه العلاقة ينبغي سبر أغوار هذا المنهج ، من تعريف للتداولية سواءا عند الغرب أو عند العرب. ومعرفة الأسس التي تبنى عليها هذه النظرية ثم نصل إلى تحديد مقاربة بين البلاغة و الخطاب التداولي آخذين بعين الاعتبار أنموذج نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

2- الدرس التداولي عند الغرب :

تعد النظرية التداولية من أوسع النظريات اللسانية المعاصرة ، وذلك راجع إلى التداخل الحاصل من جراء تقاطع هذه النظرية مع نظريات أخرى. و التي تعرف في البحوث الغربية بمصطلح البراغماتيك المقابل لمصطلح Pragmatics

و الذي ترجم فيما بعد بمصطلح التداوليات سنة 1970 من قبل الأستاذ طه عبد الرحمان الذي يقول بهذا الصدد في كتاب " في أصول الحوار وتجديد علم الكلام .": " وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح "التداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا" لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالاته على معني "الاستعمال" و " التفاعل " معا . ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم." (14)

أ- تعريفها : تضاربت الآراء في تعريف التداولية ، بسبب تعدد وجهات نظر الدارسين لهذا الحقل المعرفي . " فهي تخصيص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم.

كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات ، و الأحاديث و بناءا على ما تقدم يمكننا القول كذلك بأن اللسانيات التداولية إنما هي لسانيات الحوار...." (15) و إننا في عملية استعراض تعريف التداولية سنلقى اختلافا واضحا بين هذه التعريفات فأقدم تعريف لها " هو تعريف شارل موريس "Morris" سنة 1938 م إذ أن

التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات ، وهذا التعريف يبقى واسعا يتعدى المجال اللساني ."(16)

إذا أردنا أن ندقق في هذه التعريفات ، نجد أن أدق تعريف لها ما يجعلها متصلة اتصالا مباشرا بالواقع المعيش وهو تعريف فرانسيس جاك إذ " تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا ."

وهناك اتجاه يرى في التداولية " أنها أقوال تتحول إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية ،بمجرد التلفظ بها ، ومنهم من يلخص التداولية في دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من خلال الخطاب ، و تنظر في عنصر الذاتية للخطاب و هذه التداولية تشمل ضمائر الشخص و مهمات الزمان و المكان . وهناك اتجاه ينظر في الجانب الضمني والتلميحي وكذلك الحجاجي للكلام."(18)

وفي كل الحالات التي تعددت فيها هذه التعاريف نجدها مركزة على مبدأ السياق. وأعني به أن السياق حاضر في التداوليات ، لأنه بكل بساطة هو الفاصل الرئيسي بين التداولية و ما سواها من نظريات لسانية ، وخاصة البنيوية و هي بهذا جاءت كردة فعل انتقادية للبنيوية. فإذا كانت اللسانيات السوسيرية و البنيوية بصفة عامة ، لا تخرج عن إطار الثنائية التي وضعها دي سوسير De saussure لغة /كلام ، فإن التداولية منطلقها وقاعدتها الأساسية هو رفض لهذه الثنائية . وفي نفس المضمار تقول الدكتورة خولة طالب الإبراهيمي " تعتبر التداولية مجموعة من النظريات نشأت متفاوتة من حيث المنطلقات و متفقة على أن اللغة نشاط يمارس ضمن سياق متعدد الأبعاد ، إذ نستطيع القول بأن التداولية نشأت كرد فعل للتوجهات البنيوية بما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها ، خاصة عند اللساني الأمريكي تشومسكي وأتباعه ، فاللغوي نجده يعتمد عند وصفه للظواهر اللغوية على التقابل المشهور الذي وضعه دي سوسير بين اللغة و الكلام ، حيث أبعد الكلام وهو الذي يمثل الاستعمال الحقيقي للغة من دائرة اهتمام اللغويين و اقتصرت الدراسة على بنى اللغة ونظامها."(19)

إذن التداولية تعنى بالبحث في العلاقات القائمة بين اللغة و متداوليها من الناطقين بها فيأخذ على عاتقها تحليل عمليات الكلام و وصف وظائف الأقوال اللغوية و خصائصها لدى التواصل اللغوي. (20)

وكخلاصة إجمالية لهذه التعريفات فقد حاول الباحث محمود أحمد نحلة إعطاء تعريف موجز للتداولية حيث يقول : (ومن هنا كان أوجز تعريف للتداولية

وأقربه إلى القبول هو : دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأسلا في الكلمات وحدها ، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ، ولا السامع وحده ، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق نحدد (مادي واجتماعي ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما .) (21)

هذا في ما يخص تعاريف التداولية عند الغرب و في نظر الباحثين المعاصرين . و المهم بعد هذا هو ماذا عن مظاهر تطورها ؟؟ فقبل أن نتطرق إلى أهم محطات التطور للتداولية الغربية علينا أن نشير إلى أن الحقل التداولي اللساني عرف نظريات عدة تتفق على أن موضوع الدراسة هو العملية التبليغية ، وهذا وفق الاهتمام بأهم عناصرها (المتكلم ، المتلقي – الوضعية التبليغية) ، لكنها تختلف وفق رؤيتها للغة و المقام .

هنا نحاول تلخيص أهم ما جاءت به هذه النظريات ، لأن موضوع البحث لا يتسع للشرح و التفصيل ، فأهم هذه النظريات التداولية وهي:

(1) نظرية الحديث لبنفنيست benveniste

(2) نظرية أفعال الكلام لأوستين و سيرل. austine-searle

(3) نظرية قوانين المحادثة لجريس Grice

1- نظرية الحديث :

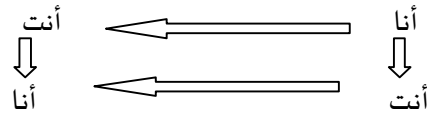
أول من نظر لها هو العالم اللغوي الفرنسي الشهير (أميل بنفنيست E.benveniste) الذي أكد على ضرورة التمييز بين اللغة كسجل من الأدلة

و نظام تتركب فيه الأدلة ، و اللغة كنشاط يتحقق من وقائع الخطاب التي تخصصها علامات خاصة تلك العلامات التي يسميها بنفنيست "المؤشرات"

و يكمن دورها في تفسير اللغة خطابا فعليا ، هذا التعبير يسميه "الحديث" (Enonciation) "و يمكن للدارسين أن ينكبوا على دراسة البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في اللغة بما فيها الضمائر و العلامات الدالة على الزمان و المكان و ذلك في الخطاب. قهم يدرسون الأقوال و الصيغ التي تتجلى مرجعيتها و دلالتها في سياق الحديث، وهي تعتبر أقوالا مبهمة ، إذا درسناها خارج السياق . وهذه العناصر اللغوية التي لا تعرف دلالتها المرجعية إلا من خلال السياق تتمثل في ضمائر الشخص و المكان و كل العلامات الأخرى التي تظهر و تبرز الكيفية التي تجري بها عملية التلفظ و قد حدد بنفنيست كون جوهر التفرقة ليس بين اللغة و الكلام وإنما الفرق يكمن في الثنائية (التلفظ / الملفوظ) . فالملفوظ هو المقصود من الكلام الذي يصاغ في عملية التلفظ، وهو البنية السطحية (المسموعة / المقروءة).

و يعرف بنفنيست التلفظ : " التلفظ هو إجراء اللغة في الاستعمال من خلال فعل فردي"(22)

معنى ذلك أن صاحب النظرية يركز على أن الأنا وفق سياق معين حيث يقوم الحديث بين أنا و أنت بحيث يتبادل كل منهما المواقع.



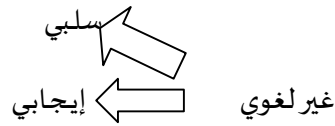
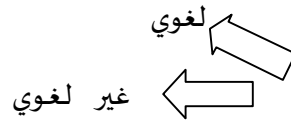
ولنتقل إلى نظرية ثانية الأهم استطاعت أن تتوغل أكثر في عمق العملية التبليغية و هي نظرية أفعال الكلام

2-نظرية أفعال الكلام: La théorie des actes du langage:

وتنطلق من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة عن المتكلمين ضمن وضعيات محددة تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية، وترجع هاته النظرية في أول عهدها إلى الفلاسفة التحليليين الإنجليز ورائدها "أوستين" AUSTINE

إن ما يهمننا في نظرية (أوستين) في المرحلة الأولى لنظريته أنه قسم فيها الأقوال (الملفوظات) إلى أقوال تقريرية و أقوال إنشائية . وقبل أن Kيبين مقصوده بالنوعين علينا أن نعرف نقطة مهمة كانت الأساس المشترك لنظرية (أوستين) في المرحلتين الأولى و التي تتمثل في اعتبار (أوستين) أن أي عملية تكلم لها معنى تعتبر "فعل كلامي" وهذا هو جوهر نظريته. فلقد أدرك (أوستين)

و تلميذه (سيرل) searle "أن اللغة ليست بنى و دلالات فقط بل هي أيضا أفعال كلامية تربط بين المتكلم و المستمع و الهدف من هذا النشاط هو التأثير في المستمع . إذن هناك فعل و رد فعل. ويقسم أوستين رد الفعل إلى:



أما في المرحلة الثانية من النظرية فقد أعاد النظر فيها، حيث رأى أن للفعل الكلامي ثلاث جوانب :

1- الفعل الصوتي أو الفعل اللغوي : (actes locutoire) وهو الفعل الفيزيولوجي للتفوه ، أي مجموع الأصوات و الكلمات التي نسمعها عندما نقول شيئا له معنى معين.

2- الفعل الإنجازي (أو الفعل المقصود من التفوه) (acte illocutoire) ويقصد بذلك المضمون أو المدلول الذي يدل عليه الفعل الصوتي ، وهو القيمة الاجتماعية للقول أو التفوه : هل هو شكر أم تهديد أم سخرية أم إعتذار؟؟ مثلا.

3- الفعل التأثيري acte perlocutoire

ويتمثل في رد الفعل الناتج من المخاطب سواء لغوي أو غير لغوي ، سواء سلبى أو إيجابى. هذا عن نظرية أفعال الكلام فماذا عن نظرية شروط المحادثة أو قوانين الخطاب؟

3- نظرية شروط المحادثة أو قوانين الخطاب :

يقترح (غرايس Grice) مفهوما أعم يمكن أن يشتغل بمعزل عن الكلام كما يمكنه ان ينظم أي تواصل كان باعتباره سلوك عقلائي للفرد. كما يؤسس مبدأ التعاون حول مقاصد المشاركين.

ففي نظر أصحاب هذه النظرية أن هناك جسور تواصل ضمنية مخزنة في ذهن المتخاطبين أو ما يعرف عنه "بالافتراضات المسبقة " تندرج تحتها القوانين العامة (قوانين الخطاب) و معلومات خاصة بأقطاب العملية التواصلية . ولأن الغاية هي توصيل فكرة أو معنى معين من الرسالة فقد اهتم أصحاب هذه النظرية "بالأقوال المضمرة" وهي كيفية الانتقال من مستوى التلميح للوصول إلى المعنى المقصود. كما أنه في حواراتنا اليومية العادية نستعمل طرائق مختلفة، نحاول أن نحدث تأثيرا في المستمع بغية جعله يقتنع بفكرة ما ، أو أن نسعى من وراء هذه التقنية إلى حمل المستمع على قول شيء ما ، أو القيام بفعل ما. وهذه العملية التأثيرية هي التي تدعي الحجاج (23) فهو يمثل "مجموعة من العمليات الخطابية ترتبط بعوامل الوضعية التبليغية من جهة ، وبالصيغ اللغوية من جهة أخرى ، ويتوقف ذلك على العمليات الذهنية لمتخاطبين و ما ينجر عنها من استنتاجات خاضعة لمقدمات." (24)

نخلص من هذا الطرح إلى أن " الإطار التداولي لعملية الحجاج تكمن في أنها تتدخل في آراء و سلوكات المتكلم و المستمعين عن طريق التأثير فيهم ، وذلك لحملهم على الوصول إلى النتائج التي توصلنا إليها و الاقتناع بها ، و الحجاج كما يقول بعضهم ليس

فقط البحث عن إقناع الغير ولكنه أيضا بناء نمط تمثيلي الغرض منه هو التأثير على المستمعين..."(25)

هذا عن أهم مبادئ نظرية شروط المحادثة التي قدمت شروطا ، لكي ينجح المتكلم في إيصال رسالته ، اهتم الدارسون في هذه النظرية بالمستمع (المتلقي) والمقام ، كما استطاعوا أن يكشفوا لنا عن كواليس العملية التبليغية ، بما يعرف بالافتراضات المسبقة ، أما عن الأقوال المضمرة فلقد تحدث عنها البلاغيون وتعمق فيها (سيرل) تلميذ أوستين ونحن شخصيا نعتبر هذه النظرية أعمق النظريات للتداولية .

أما عن أهم عنصر في التداولية وهو السياق أو المقام الذي وجدناه حاضرا بالضرورة في كل نقطة من نقاط النظرية التداولية ، فإن الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن السياق أنواع كثيرة ، و المهم منها في الدرس التداولي "سياق الحال" الذي هو جوهره. "و سياق الحال هو كل ما يحيط بالأشخاص المتكلمين في عملية التواصل من مكان و زمان و ظروف و دوافع تجعلهم يتواصلون أو هو : مجموع الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي و اللغة و هي المعطيات المشتركة بين المرسل و المتلقي و السياق الثقافي و النفسي ، والتجارب و المعلومات الرائجة بينها " (26)

وتجدر الإشارة إلى أننا سنتناول مدى اهتمام علماء السلف بقضية السياق في مبحث الدرس التداولي عند العرب.

3- الدرس التداولي عند العرب :

كما رأينا في السابق فإن التداولية هي دراسة علمية تكشف حقائق اللغة كنشاط فردي اجتماعي، إنها التقاط صورة تحليلية لعمليات التواصل التي تقوم بها يوميا مع الآخرين وهذا وفق المنظور اللساني للتداولية . ومنه فالدراسة التداولية تضرب بجذورها في عمق الفكر اللغوي العربي و الفكر التشريعي..

وإذا كان البنيويون ركزوا على دراسة اللغة كبنية ذهنية مجردة ملك مجتمع ما.فإن العرب في دراستهم للبنية لم يهملوا البعد الاجتماعي للغة. كما نجد للمقام دورا كبيرا في

العديد من الأحكام النحوية. وفي هذا المجال يقول عبد الرحمان حاج صالح " و خلاصة القول هنا هو أن النحو العربي قد وضع على أسس ابستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية وخصوصا في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته ، هذا وليس الاختلاف متوقفا على هذا الجانب بل هناك أيضا اختلاف آخر في النظرة إلى البحث في اللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل....وهذا الذي قلناه يترتب عليه شيء قد تجاهله الوصفيون وهو أن اللغة ليست فقط نظاما من الأدلة المسموعة ، بل هي زيادة على ذلك قوانين وأصول يعمل بها كل من يتكلم بها دونما شعور (ويشعر بها عندما يعثر لسانه) وهذا هو عين الخلاف بين النحو الأوروبي التقليدي و اللسانيات البنيوية إذ تمتنع البنيوية من النظر في القواعد لأنها تفرض في نظرها معيارا معيناً. وفي هذا الموقف يكمن سبب السكون المهل الذي تتصف به هذه النزعة إذ كيف يصدر أهم شيء في اللغة هو السلوك اللغوي أو بعبارة أخرى كيف يترك البحث في الكلام نفسه كفعل من الأفعال التي يتحصل بها نظام اللغة .

وهذا موقف الإيجابيين و الظاهرية اللغوية الغربية التي لا ترى في اللغة إلا ما يسمع ثم ما يتسق ويتقابل في داخل التسلسل الكلامي و لا تلتفت أبدا إلى تصرف المتكلم في اللغة في دورة تخاطب هي أحوال معينة فأخرجوا بذلك الذات (le sujet) وهو المتكلم ناسين أن اللسان هو الشيء (un objet) و أفعال أيضا تسلط على هذا الشيء." (27)

وهكذا نستنتج من مقولة الدكتور أن النحاة اهتموا بالمقام و بالمتكلم .إذن فالدراسة التداولية منا جزء لا يتجزأ من النحو العربي ، و أحسن مثال على ذلك مفهوم النحاة للجملة و الكلام، و القرائن المقامية .كما نجد الدراسة لتداولية العربية في رحاب الفكر التشريعي فيما يخص تفسير القرآن الكريم ، أليس دراسة دلالة الآيات مقرونة بسبب نزولها؟؟ وأليس سبب النزول هو جزء بل هو المقام ؟

أي أن دراسة الظروف و إلى من وجهت الآيات ، ولأجل ماذا، هي دراسة تداولية.أضف إلى ذلك أن المسلمين درسوا مقاصد الشرع و كل هذه الأمور هي من صميم

الدراسات التداولية. كما تبين لنا أن في تراثنا العربي علم خاص بمراعاة أو مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهو علم المعاني ، إنه يتجذر في عمق الفكر اللساني التداولي.

إن المتصفح للإرث اللغوي و الفكري العربيين يجد أقوال العلماء العرب في السياق كالآتي ، نجدها اليوم في النظريات المعاصرة (اللسانية). و عندما نقول السياق فإننا نعني به كل أنواع السياقات و خاصة المقامية ، ولعل هذا يتجلى بصورة واضحة في عبارة : (لكل مقام مقال) فهذه الجملة على قصرها فهي حمالة لبذور نظرية سياقية مستقلة ، ولعل الذين اهتموا بالمقام هم علماء البلاغة و البيان ثم يأتي بعدهم علماء النحو وعلماء الأصول .

نعلم جديدا أن علماؤنا اهتموا بالجانب التواصل للغة ، و خاضوا فيه خوض الجسور و أفادونا بنظريات مختلفة المناحي و المشارب ، ومن جل ما توصلوا إليه أنهم درسوا الكلام داخل المقام أي كيف نفهم الخطاب ؟ أبعيدا عن السياق الذي دار فيه الخطاب أم لا يمكننا أن نفصل الخطاب عن السياق ذاك ؟

" وقد قال بهذا الرأي كثير من الدارسين العرب المعاصرين منهم :د.أحمد المتوكل و في دفاعه عن وظيفة التراث العربي...ومنهم جعفر دك الباب و عبد الرحمان الحاج صالح."(28)

ومن ذلك ما قرره أبو يعقوب السكاكي في المفتاح "ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام، وكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن و القبول وانحطاطه في ذلك بسبب مصادفة الكلام لما يليق به هو الذي نسميه مقتضى الحال.." (29)

فقوله "نسميه مقتضى الحال" هو ما بعرف في الدرس التداولي المعاصر اليوم بالسياق الحالي ، وهو من أهم السياقات في هذا الدرس اللساني. فحقيقة هذا السياق في التراث العربي خاصة البلاغي منه تظهر في تعريف البلاغة بأنها "مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته ، فالكلام البليغ هو الكلام الواضح المعنى ،الفصيح العبارة الملائم للوضع الذي يطلق فيه و الأشخاص الذين يخاطبون " (30) ثم يضيف القزويني قائلا : ويقتضي الحال اختلاف مقامات الكلام ، وتفاوتها حسب المواطن والمواضع التي يقال فيها " (31)

ولقد رأينا أن نظرية أفعال الكلام في المرحلة الأولى قسم فيها (أوستين) الأقوال إلى إنشائية وتقريرية و هو نفس مفهوم العرب لها من فارق أن (أوستين) اعتبر القول الكلامي فعلا أو جملا ، و قد استطاع الدكتور (عمر بلخير) أن يكشف وجه المطابقة أو التشابه الكبير بين أفكار (سيرل) و أفكار السكاكي إذ يقول ".....حينما نقرأ المنطق الذي سلكه السكاكي في تفسير الأسلوب الذي تنتقل فيه الدلالة من قول لآخر في كتابه "مفتاح العلوم" نندهش للتقارب الموجود بينه

و بين (سيرل) عندما قسم السكاكي الكلام إلى خبر وإنشاء ، فقد وضع لكل قسم منهما شروطا مقامية تتحكم في إنجازها ، أي في إجرائه لمقتضى الحال ، ويتفرع عن هذه الأنواع نفسها أغراض تتولد في حال إجراء الكلام على ما يقتضي المقام.يمكن للخبر إذا أجري الكلام على غير أصله أي على خلاف مقتضيات الحال أن تخرج في قصد إلى أغراض مختلفة كالتلويح و التجميل بأن أنواعه الأصلية تخرج عن الأصل و المقامات....." (32)

ومنه فالدراسات التداولية العربية نجدها مبثوثة في الميدان النحوي ، البلاغي ، التشريعي ، لكن البلاغيين وإن كانوا قد اهتموا بالمقام و مراعاة حال السامع ، ورغم أن الدكتور (عمر بلخير) قد تفاجأ من الشبه الموجود بين أفكار (سيرل)

و أفكار السكاكي ، فلا أدري كيف غابت عنه حقيقة ساطعة كالشمس و هي نظرية النظم "لعبد القاهر الجرجاني " وأستطيع القول دون تحفظ أن العلامة عبد القاهر الجرجاني يعتبر الرائد الأول بلا منازع في الحقل التداولي العربي ، لأن عبد القاهر الجرجاني كان همه الوحيد في هاته النظرية كيف نوصل المعاني إلى الآخرين حسب مراعاة فكر المستمع و المقام و بصمة المتكلم فيها .

نظرية النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" في ضوء المنهج التداولي :

يعد عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) علما من أعلام الثقافة الإسلامية الذين ظهروا في القرن الخامس الهجري و تتمثل نظريته في كون اللغة هدفها التواصل الاجتماعي.

-أنه من يصنع الجملة في الحقيقة هو السامع.

-تركيزه على المقام لدرجة تفريقه بين البنى اللغوية انطلاقا من المقام .

- مع هذا يركز على بصمة المتكلم من خلال تقسيمه النظم إلى درجات خاصة بإبداعية الفرد المنتج لرسالة.

إن في عمق نظرية ثلاث أبعاد تعكس الأفكار الجوهرية للنظريات التداولية الغربية التي تعرضنا لها سابقا، يركز الجرجاني على أن المتكلم يرسل الرسالة ليعلم السامع شيئا جديدا لا يعلمه ، إذن فإنه يؤثر فيه (نظرية أفعال الكلام)

-يقدم الجرجاني نصائح للمتكلم حتى تنجح رسالته ، وهذا يشبه إلى حد ما (قوانين الخطاب).

-يركز الجرجاني على أن اللغة نتاج ،ولكل فكر شخصيته و بصمته في رسالته رغم الشروط العامة التي قدمها الجرجاني من مراعاة المقام ، ومراعاة حال المستمع.وانطلاقا من تلك البصمات ينقسم النظم إلى درجات.

-إنه يركز على الأنا داخل العملية التبليغية –وهذا يشبه تركيز (بنفنيست) على الأنا في لسانيات التلفظ.

-تكلم الجرجاني على أن لكل رسالة أغراض ومقاصد ، على المتكلم أن يراعيها في عملية إنتاج الرسالة، حتى يصل الغرض للمستمع وهذا ما تكلمت عنه التداولية الغربية كذلك . ومع هذا فهناك اختلافات كون الجرجاني يسلط الضوء على المراحل التي تجعل من الرسالة ناجحة

1- مراعاة المستمع.

2-مراعاة المقام.

3-مراعاة النظام النحوي.

4-على المتكلم أن يصوغ رسالته بما يحقق أهدافه وأغراضه من الرسالة.

- وعليه فالاختلاف يكمن في تركيز عبد القاهر الجرجاني على مراعاة المتكلم لقوانين علم النحو، و يعتبرها أساس عملية النظم رغم أنه يقدم لنا من خلال نظريته أفكارا جديدة تجعل من النظم جيدا وناجحا .

- فهو إذن يعود إلى البنية .وهنا يكمن الاختلاف، فالنحاة لا يدرسون البنية في غياب البعد الاجتماعي لها ، وكذا الجرجاني لم يدرس عملية إنتاج المتكلم لكلامه أو صياغته للمعنى إلا على ضوء البنية.

وهذا ما ركز عليه صاحب أول تعريف للتداولية (شارل موريس) إذ يرى أن الدارس لا يصل إلى البعد التداولي للغة إلا بعد دراسة علاقة العلامات ببعضها البعض(علم التراكيب)،ثم علاقة العلامات بمراجعها (علم الدلالة).

ولا نعتقد أن نظرية النظم نظرية نحوية بلاغية فقط بل هي نظرية يصب فيها كل الأبعاد اللسانية الأخرى من علم الدلالة إذا تكلم الجرجاني في (المعنى و معنى المعنى) وعلم الأسلوب وتحليل الخطاب.... الخ.

ضف إلى ذلك أن الجرجاني لم يركز في نظريته على الخطاب بقدر ما ركز على الجملة ، وهذه نقطة اختلاف أخرى بينه و بين الدراسات التداولية التي ركزت على الملفوظ أي الفعل الكلامي ولم تحصره في الجملة .بل قد يتعدى إلى الخطاب و النص ، ومع هذا فإن نظرية النظم قابلة للتمطيط ،لأن الجرجاني ركز عموما على آلية إنتاج الجملة. ومن تحصيل حاصل أن تكون عملية الإنتاج هذه في أكثر من جملة ، ولكن الجرجاني ربما ركز على الجملة لأنها أحسن مستوى صالح للدراسة نستطيع من خلاله أن نعكس الحقائق المتوصل إليها لتشمل مستوى أرقى من الجملة، بل هي نواة النص لا يقوم إلا بها .

وبعد هذا كله نستطيع القول أن نظرية النظم هي دراسة لسانية تداولية ،لأن التداولية اللسانية تفتح أبوابها لجميع الدراسات العلمية الإنسانية ،لأن موضوعها يفرض ذلك ،كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

و بعد عرضنا لأهم مفاهيم الجرجاني في دراسته التداولية ندع الآن أقواله لنا عن الحقيقة اللغوية و نعني بالحقيقة ،أن نظرية النظم تصب في عمق الدراسات التداولية.

ونبدأ أولاً بنظرة عبد القاهر الجرجاني للغة ، حيث يراها جسر ينقل به المتكلم أفكارا تهم المستمع بغية التواصل بين أفراد المجتمع الواحد. إذ يقول : "ومما يعلم ببداية العقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم و مقصوده " (33)

1- هنا يركز على الأنا (المتكلم) ↔ لسانيات التلفظ (بنفنيست)

2- الغرض و المقصود ↔ نظرية أفعال الكلام (سيرل)

ويقول في مقام آخر :

" وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم و عابوه من جهة سوء التأليف .أن الفساد و الخلل كان من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب وضع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يضعه و ما لا يصوغ و لا يصح على أصول هذا العلم....وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما ييم الكلم و الله الموفق للصواب. " (34)

وهنا ركز الجرجاني على مراعاة المتكلم لقوانين النحو. لأن النحو ليس علما اخترع قوانين اللغة بل اكتشف قوانين النظام التركيبي والإفرادي (لبنية الكلمة)

ولأن هاته القوانين ليست موجودة لزيينة إنما ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية توصيل المعنى أي أن الدلالة تتوقف بنسبة كبيرة على النظام النحوي. وهو نفس الشيء الذي و ركز عليه عليه " شارل موريس".

ورغم أن عبد القاهر الجرجاني ركز في هذا الموضع على وجوب مراعاة المتكلم لقوانين علم النحو. إلا أنه في موضوع آخر يسلط الضوء على حقيقة هي أن مراعاة معاني النحو يتم وفق شروط معينة فيقول : "وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني

النحو وعلى الوجوه و الفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق و الوجوه الكثيرة ليس لها غاية تقف عندها و نهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ،و من حيث هي على الإطلاق ،ولكن تعرض بسبب المعاني و الأغراض التي يوضع لها الكلام .ثم بحسب موقع بعضها من بعض و استعمال بعضها مع بعض." (35) و يقول في موضع آخر :

" واعلم،أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق و الوجوه فتستند إلى اللغة ،ولكننا أوجبتها للعلم بمواضعها و ما ينبغي أن يضع فيها ، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع و الفاء للتعقيب بغير تراخ...ولكن لا يتأتى لك إذا نظمت و ألقت رسالة أن تحسن التخير، و أن تعرف لكل من ذلك موضعه ." (36) وهكذا فالجرجاني يركز على مراعاة المتكلم للنظام النحوي في عملية إنتاجه للجملة يقوم على :

1-مراعاة الموضع (المقام)

2-مراعاة أغراض الرسالة والأهداف التي ترمي إليها.

ويكشف لنا الجرجاني أن التراكيب اللغوية مثل قولنا :

1-زيد منطلق

2-زيد هو منطلق

3-زيد هو المنطلق.

قد تبدوا لها معنى واحد.لكن في الحقيقة معانيها مختلفة ،وهذا لأن الجرجاني يربط التراكيب اللغوية بالمقام الذي قيلت فيه و هو يعبر عن الموضع لدلالة على المقام و حال السامع.

فالجملة 1: المستمع خال الذهن تماما من الخبر.

الجملة 2:المستمع يشك في الخبر، فيستعمل المتكلم الضمير هو للتأكيد.

الجملة 3: المستمع منكر للخبر. والمتكلم يستعمل تأكيد آخر وهو "أل" ليؤكد على خبره بقوة أكثر، مقنعا بذلك المستمع.

ومثالي مثل هذا يعكس أن العرب قد درسوا الحجاج. أي عملية إقناع المتكلم للمستمع.

ويقدم الجرجاني أمثلة كثيرة مثل هذا النوع، حيث يحل البنية حسب المقام الذي قيلت و تقال فيه، ومنه فدراسته تصب في عمق الدراسة التداولية الغربية ، حسب ما رأيناه سابقا. أما فيما يخص الحجاج فليس هناك دراسة تعكس أن العرب قد تناولوا جانب إقناع السامع من ما يعرف عندنا "بفن الخطابة" إذ تعمق العرب في هذا الفن أيما تعمق.

لقد أعطينا مجرد صورة بسيطة عن موضوع التداولية العربية و إن خاض قدماؤنا هذا الموضوع لكن ما لاحظناه عند محدثينا العرب أنهم و للأسف لم يحاولوا توسيع و تعميق لمفاهيم العربية انطلاقا من الدراسة التداولية ، وكان كل عملهم مقتصر في تطبيق المناهج الغربية على النصوص الأدبية والمسرحيات والخطابات وغيرها...

ولهذا أملنا كبير أن يجد هذا المنهج ضالته عند لغويينا و باحثينا العرب قصد تطوير المفاهيم، والخوض أكثر في غمار هذا المنهج بغية الاستفادة و الإفادة وإضافة الجديد على الساحة اللغوية .

الخاتمة :

من خلال هذه الجولة القصيرة (المتواضعة) في زقاق الدرس البلاغي

والتداولي يمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج المهمة :

1-تحقيق مبدأ الصلة الوثيقة بين البلاغة و الخطاب التداولي.

2-استطاع هذا المنهج اللساني الجديد إعادة السلطة للكلام و بالتالي للمتكلم

والسامع ، وهكذا السياق و ملابساته ، وهذه هي النقطة التي أهملها الدرس البنيوي.

3-توصل هذا المنهج إلى دراسة اللغة دراسة علمية دقيقة ،حيث يتم الخروج بنظرية حيوية تتمثل في نظرية الأفعال الكلامية وتصنيف الأفعال و شروط الخطاب و السياق.

4-إن الشيء الذي زاد من مصداقية هذا التوجه الجديد هو تقاطعه مع العديد من العلوم و التخصصات مما جعله أكثر ثراء.

5-في هذا المنهج ما يدل على أن العرب كانت لهم جولات مع الدرس التداولي

وذلك من خلال تلك الأفكار التي توصلوا إليها في العلوم اللغوية (نحو.بلاغة.....) و ما نظرية النظم إلا خير مثال على هذا السبق العلمي في تراثنا العربي.

وما يزال البحث مفتوحا في هذا المنهج للمزيد من المقاربات العلمية بين ما توصلوا إليه و ما هو موجود عندنا هنا و هناك.

هوامش البحث :

1-أحمد شامية –خصائص العربية و الإعجاز القرآني،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 ص119.

2-جعفر دك الباب –الموجز في شرح دلائل الإعجاز ،مطبعة الجليل دمشق 1980 ص28.

3-أحمد شامية –خصائص العربية و الإعجاز القرآني ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 ص120.

4- دك الباب –الموجز في شرح دلائل الإعجاز ،مطبعة الجليل دمشق 1980 ص28.

5-المرجع نفسه.

6- عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز ،مكتبة الخانجي-الطبعة الثالثة القاهرة 1992ص62.

7-المصدر نفسه ص64.

8-تمام حسان –اللغة العربية معناها و مبناها-الهيئة المصرية العامة للكتاب ط2-1976ص18.

9- عبد القاهر الجرجاني-دلائل الإعجاز ص74.

- 10-السكاكي –مفتاح العلوم-دار الكتب العلمية ص70.
- 11-تمام حسان –الأصول-الهيئة المصرية العامة للكتاب،ص363.
- 12-- دك الباب –الموجز في شرح دلائل الإعجازص114.
- 13-تمام حسان –اللغة العربية معناها و مبنائها ص18.
- 14-طه عبد الرحمان –في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ،المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع-المغرب ط1987، ص1.
- 15-من مقدمة محمد يحياتن لكتاب "مدخل إلى اللسانيات التداولية" لجيلالي دلاش ،ديوان المطبوعات الجامعية 1992 ص01.
- 16-فرانسواز أرمينكو ،المقاربة التداولية ،ترجمة سعيد علوش ،مركز الإنماء القومي ص08.
- 17-المرجع نفسه ص08.
- 18-عمر بلخير-تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ،منشورات الاختلاف –الجزائر ط2003 ،ص09-08.
- 19-نؤارة بوعباد-دراسة تداولية للخطاب التعليمي الجامعي للغة العربية ،رسالة ماجستير ص129.
- 20-فرناند هالين –التداولية –ترجمة زياد عز الدين العرف ،مقال في مجلة الآداب الأجنبية العدد 125،إتحاد كتاب العرب- دمشق سوريا ص01.
- 21-أحمد محمود نحلة ،آفاق جديدة في البحث الغوي المعاصر ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ط2002، ص13.
- 22- نؤارة بوعباد-دراسة تداولية للخطاب التعليمي الجامعي للغة العربية –ص10.
- 23- عمر بلخير-تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ،منشورات الاختلاف-ط2003 ص121.
- 24-المرجع نفسه ص122.
- 25-المرجع نفسه ص123.

26-الأفعال المتضمنة في القول ،رسالة دكتوراه ص15.

27-عبد الرحمان الحاج صالح-المدرسة الخليلية الحديثة و الدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي ،مقال ألقى في المؤتمر الذي أقامته منظمة اليونسكو بالرباط في 18 أفريل 1981 ص02.

28-الأفعال المتضمنة في القول ،رسالة دكتوراه ص21-22.

29- السكاكي،مفتاح العلوم،ضبط و تعليق نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية –بيروت 1987ص168.

30-الخطيب القزويني ،تلخيص المفتاح ،قراءة و كتب حواشيه و قدم له ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية صيد-بيروت ط2002ص42.

31-المرجع نفسه ص42.

32- عمر بلخير ،مدخل إلى دراسة بعض التداولية في اللغة العربية ص116-117.

33-عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز،دار المعرفة للطباعة و النشر –بيروت1981ص315.

34-المصدر نفسه ص64.

35- المصدر نفسه ص65.

36- المصدر نفسه ص193.

